الفصل الأول

عن الحمد

ولا مناص من أن أفتتح الكتاب بفصل عن الحمد :

الحمد لله رب العالمين :

إن الحمد الذى افتتح الله به الفاتحة ، أى افتتح به القرآن الكريم ، مشيراً إلى العلة – وهى التربية التى من شأنها أن تهذب ، وأن تسير بالمربَّى نحو الكمال – التربية أو السير نحو الكمال لكل عالَم ، لجميع العالَمين – . . . . شعار المؤمن الصادق .

« الحمد لله رب العالَمين » .

الحمد لله المربِّى لجميع العوالِم ، السائِر بهم نحو الكمال بحسب استعداد كل ، واستجابته . ومن أجل ذلك ، بل من أجل كماله سبحانه فى نفسه ، كان له الحمد فى السموات والأرض .

« ولَهُ الحَمْدُ فِى السَّمٰواتِ والأَرْضِ ، وعَشِيًّا وحِينَ تُظْهِرُونَ (١) » .

« فلِلَّهِ الحَمْدُ رَبِّ السَّمٰواتِ ، ورَبِّ الأَرْضِ ، رَبِّ العالَمِينَ (٢) » .

وكان له الحمد فى الأولى والآخرة .

« وهُوَ اللهُ لا إلٰه إلاَّ هُوَ لَهُ الحَمْدُ فِى الأُولَى والآخِرَةِ ، ولَهُ الحُكْمُ

---

(١) الروم : ١٨ .

(٢) الجاثية : ٣٦ .

وإليهِ تُرجَعون[١] » .

ومن أجلِّ أنواع الحمد ، وأرقها ، وأرقاها ، وأنفسها : الحمد الذى ينبعث من نفس الإنسان ، من أجل كمال الله سبحانه ، وقد وردت فى القرآن الكريم نماذج لذلك :

يقول الله تعالى :

« وقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ ، الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ، ولَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى المُلْكِ ، ولَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ، وكَبِّرْهُ تَكبِيرا[٢] » .

ويلى ذلك الحمد على نعمة الهداية ، وعلى إنزال مصدرها ومنبعها : « القرآن الكريم » .

« الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتابَ ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجا[٣] » .

ثم الحمد على النعمة العامة :

« الحَمْدُ للهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ ، وجَعَلَ الظُّلُماتِ والنُّورَ[٤] » :

« الحمدُ للهِ فاطِرِ السَّمٰواتِ والأَرْضِ ، جاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً ، أُولِى أَجْنِحَةٍ ، مَثْنَى ، وثُلاثَ ، ورُباعَ ، يَزِيدُ فِى الخَلْقِ ما يَشاءُ ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ[٥] » .

ثم الحمد من أجل النعم الخاصة . والنعمُ الخاصة كثيرة ، متعددة ،

---

(١) القصص : ٧٠ .
(٢) الإسراء : ١١١ .
(٣) الكهف : ١ .
(٤) الأنعام : ١ .
(٥) فاطر : ١ .

« وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها (١) » .

وقد أسبغها الله علينا ظاهرة ، وباطنة .

« أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّمٰواتِ وما فِي الأَرْضِ وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وباطِنَةً (٢) » .

وكلها – بدون استثناء – من الله .

« وما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ (٣) » .

من أجل ذلك أمر الله سبحانه بالحمد عند كل نعمة :

« فَإذا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الفُلْكِ ، فَقُلِ الحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤) » .

واستجاب للأمر من استجاب :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا داوُدَ وسُلَيْمانَ عِلْماً ، وقالا : الحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ » (٥) .

« الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إسْماعِيلَ وإسْحاقَ إنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ (٦) » .

« وقَالُوا : الحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ

---

(١) النحل : ١٨ .
(٢) لقمان : ٢٠ .
(٣) النحل : ٥٣ .
(٤) المؤمنون : ٢٨ .
(٥) النمل : ١٥ .
(٦) إبراهيم : ٣٩ .

مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ العامِلِينَ »[١] .

« وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهارُ ، وقالُوا الحَمْدُ للهِ الَّذِى هَدانا لِهَذا ، وما كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلاَ أَنْ هَدانا اللهُ » .

« وقالُوا الحَمْدُ للهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ ؛ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ » .

بل هو آخر دعاء أهل الجنة :

« دَعْواهُمْ فِيهَا سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ ، وتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ ، وآخِرُ دَعْواهُمْ ، أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ » .

الحمد لله : إنها تملأ الميزان ، كما ورد فى حديث « أبى مالك الأشعرىَ » فيما رواه « الإمام مسلم » . قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطُّهور شطرُ الإيمان ، والحمدُ لله تملأُ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ، أو تملأ ما بين السموات والأرض » .

وبعد فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فيما رواه الشيخان ، ـ قال : « من قال : لا إله إلا الله ، وحده ، لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، فى يوم مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان ، يومه ذلك ، حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به ، إلا رجل عمل أكثر منه » .

وقال : من قال « سبحان الله وبحمده » فى يوم مائة مرة ، حطت خطاياه ، وإن كانت مثل زبد البحر » .

---

(١) الزمر : ٧٤ .

وذكر ابن عطية :

روى أنس بن مالك أن النبي عليه السلام قال :

« للحمد لله رب العالمين ، فضل ثلاثين حسنة على سائر الكلام » .

وورد حديث آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« من قال : لا إلٰه إلا الله كتب له عشرون حسنة ، ومن قال : الحمد لله رب العالمين كتب له ثلاثون حسنة » .

وهذا الحديث هو فى الذى يقولها من المؤمنين مؤتجرًا طالبًا ثوابًا ، لأن قوله : الحمد لله رب العالمين فى ضمنها : التوحيد الذى هو معنى لا إله إلا الله ، ففى قوله : توحيد وحمد وفى قول : لا إله إلا الله : توحيد فقط .

فأما إذا أخذا بموضعهما من شرع الملّة ومحلهما من دفع الكفر والإشراك ، فلا إله إلا الله أفضل ، والحاكم بذلك قول النبي عليه السلام .

« أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إلٰه إلا الله » .

وعن أبى أيوب رضى الله عنه قال : قال رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه » ، ورأى أنه قد هجم من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على شيء يكرهه ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : من هو ؟ فإنه لم يقل إلا صواباً » .

فقال الرجل : أنا قلتها يا رسول الله ، أرجو بها الخير ، فقال : « والذى نفسى بيده ، لقد رأيت ثلاثة عشر ملكاً يبتدرون كلمتك ، أيهم يرفعها إلى الله تبارك وتعالى ؟ » .

رواه ابن أبى الدنيا ، والطبرانى ، بإسناد حسن ، واللفظ له ، والبيهقى .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول من يدعى إلى الجنة ، الذين يحمدون الله عز وجل فى السراء والضرّاء » رواه ابن أبى الدنيا ، والبزار ، والطبرانى .

« الحمد » معناه الثناء الكامل ، والألف واللام فيه لاستغراق الجنس من المحامد ، وهو أعم من الشكر ، لأن الشكر إنما يكون على فعل جميل يسدى إلى الشاكر وشكره حمد ما ، والحمد المجرد هو ثناء بصفات المحمود من غير أن يسدى شيئاً ، فالحامد من الناس قسمان : الشاكر ، والمثنى بالصفات .

وأخيرًا . . فإنه ينبغى – متابعة للنسق القرآنى – أن يفتتح المسلم كل عمل من أعماله الخيرة بقوله : « الحمد لله » .

وأنا أبدأ فى هذا الكتاب « الحمد لله » وأسير فيه مردداً : « الحمد لله » وحينما أنتهى منه فإنى أتابع أهل الجنة :

« وآخِرُ دَعْواهُمْ : أنِ الحَمْدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ » .